

# « جوميه » ونجيب محفوظ

بقلم عالمي كروي

الجواد .. الاب القاسي المستبد ، الذي يتنازع نفسه التناقض ، فهو ابن حظ في الخارج ، يسهر الى ما بعد منتصف الليل ، حتى اذا دخل البيت ، تغيرت اوضاع وجهه .. عروقه تبرز ، وعيناه تحمران ، وشعيرات شنبه تنتصب ... وبدأ نقيضه الاخر في تقلد مهام منصبه .. فلا يضره ان زوجته « امينة » لا تعرف اسم الحارة التي يقع بها دكان عمله ، ولا يسمح لها بزيارة الحسين الذي يعبد عنها خطوات .

ولكن الايام تجري .. والاصوات تتلاحق .. واحد ابناؤه « فهمي » يموت برصاص الانجليز في ثورة ١٩١٩ .. والرجل وطني ، وحبسه للسيطرة يفوق احساسه بالوطنية .. ويتولاها نقيضان جديديان : فهمي لم يستأذنه في اشتراكه بالمظاهرات ، فهو ابن عاق .. وفهمي مات ، والحزن يأكل قلبه ، والمأساة تذيب عمره .

وربما كان الكاتب الاجنبي صادقا في تقديمه احمد عبد الجواد على بقية الشخص ، لانه يحس في اعماقه بهذه الشخصية ، اذ تمثل عنده « الشرق » الجامد ، الذي يتدين بعنف ، وينحل - في الداخل - اشد عنفا . ولولا هذه الحساسية « الغريبة » ، لكانت « امينة » هي الشخصية الاولى الجديرة بالملاحظة الدقيقة والدراسة المتأنية . اذ كانت باعتراف جوميه ، المشبك الذي تتعلق به الاسرة كلها .. ولذا كان ضعفها الخنوع لاستبداد زوجها ، وجهلها الثمر بكل ما حولها ، واصرارها على امسك الزمام الروحي للعائلة .. كانت كل هذه مؤهلات ، تمنح امينة الاولوية في التقديم السيكلوجي لهذه الدراسة .

ولكن الكاتب - كما قلت - لديه احساس بالغريبة ، ان جاز هذا التعبير ، فهو يبرز النقيض المستبد في شخصية احمد عبد الجواد في وضوح « حين خطر لزوجته في العام الاول من معاشرته ، ان تعلن نوعا من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل ، فما كان منه الا ان امسك باذنها وقال لها بصوته الجهوري في لهجة حازمة :

- انا الرجل . الامر النهائي . لا اقبل على سلوكي اية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة ، فحاذري ان تدفعيني الى تاديك .

فتعلمت من هذا الدرس ، وغيره مما لحق به انها تطبق كل شيء - حتى معاشره العفاريات - الا ان يحمر له عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط . وقد اطاعت ، وتفانت في الطاعة ، حتى كرهت ان تلومه على سهره ولو في سرها . ووقر في نفسها ان الرجولة الحققة ، والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليل ، صفات متلازمة لجوهر واحد . ثم انقلبت مع الايام تباهي بما يصدر عنه سواء ما يصرها ام ما يحزنها ، وظلت على جميع الاحوال الزوجة المحبة الطيعة المستسلمة » .

يدوس جوميه بشكل ملحوظ على هذه السطور .. وبهمل - تبعا لذلك - ابراز الجانب الاخر من حياة الرجل ، رغم ان المرح والسهر والعوالم ، من الصفات المصرية الاصيلة . وكان لظلالها النفسية ، ما يدل الباحث ، على نواح كثيرة ، تضيء له ما غمض على وجدانه الفريب عن الوجدان المصري .

ويستعرض الكاتب بعد ذلك ، ابنتي احمد عبد الجواد - عائشة

سئل الاستاذ نجيب محفوظ : من هو الناقد ؟ فاجاب : « ان يكون عقل فيلسوف ، وضمير قاض ، وقلب انسان . فينبغي اولا ان يكون عالما متبحرا في الشكل الادبي الذي يتقده بصفة خاصة ، وفي الادب عامة بصفة عامة ، الى ثقافة انسانية شاملة . وعليه ثانيا ان يتحرى العدل والنزاهة والامانة ، في تفسيره وحكمه وتقويمه . وان يحاسب نفسه على ذلك حساب القاضي الامين ، باعتبار ان احكامه موجهة الى عمل انساني جدير بالاحترام ، والى عقول شباب يجب ان توجه التوجيه الصحيح السليم . وعليه ثالثا ان يعالج موضوعه بقلب صاف ، ونفس متطهرة من كل ميل او زيغ او احساس غير ابيض .. ليصدر احكاما صادقة ، لا يراعى فيها الا وجه الحق وحده » .

وهذا الشهر .. صدرت الدراسة التي كتبها الراهب الفرنسي الاب جاك جوميه ، ونقلها الى العربية الدكتور نظمي لوقا .. وقد عرض فيها الكاتب لثلاثية نجيب محفوظ « بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية » فالى اي مدى ينطبق تعريف نجيب للناقد ، على هذه الدراسة الجديدة ؟

## احنوا رؤوسكم

ويحق ، اولا ، ان نحني رؤوسنا لهذا الكاتب الاجنبي ، الذي اهتم باحدى روائع ادبنا المعاصر .. فلم يقصر اهتمامه على مقال سريع ، يجامل به الادب العربي . بل اقبل على العمل الكبير ، في جهد وحب ومثابرة ، انتجت دراسة صادقة مخلصه ، تقع في مائة صفحة كاملة . وهو بذلك اعطى نقادنا درسا . فالفنان الذي يقضي سبع سنوات في البحث والخلق والتأمل والابداع .. لا شك انه يستحق اكثر من ساعة يقضيها الناقد في تلخيص العمل - او تشويبه ان شئت الدقة - وازجاء كلمة مدح او هجاء ... حسبما تمليه ظروف العلاقة الشخصية القائمة بينهما .

هذا الراهب الاجنبي ، ختم دراسته الطويلة بقوله « واننا اذ نراجع هذه السطور ، نجد ان رسالتنا هذه اصبحت تشير الى روعة ذلك العمل الادبي ، وليست ذراعا تحيط به او تظوفه . فهو عمل جميل متعدد الجوانب ، اكبر قدرا واعمق غورا من ان تحيط به هذه المجالة » ولنا ان نتخيل مدى القداسة التي تشع من عقول هؤلاء الناس في فهمهم للنقد .. ولنا ان نحني مرة اخرى .

## القيمة الانسانية

بدأ الاب جوميه دراسته ، بلمحة عن حياة الاستاذ نجيب محفوظ واعماله الادبية ، ثم قدم عرضا فكريا - لا تلخيصا - للثلاثية ، حتى يستطيع ان يمهّد للمنهج الذي اختاره سبيلا للنفاذ الى قلب القاري وعقله مما .

فهو يقسم الشخصيات تقسيما تطوريا زمنيا .. يتتبع الخطوط النيكلوجية التي رسم بها الفنان لوحته .. ويفرجه التلاحم الشبكي بين الاحداث ، لتبيين ظروفها ودوافعها .. الى ان يصل الى حل « المقعدة » التاريخية ، او النفسية ، او الاجتماعية .

وقد كان اشد الشخصيات انجذابا الى منهج جوميه ... احمد عبد

وخديجة - فالاولى جميلة يقبل عليها الخطاب والاخرى سمينة يسهت بخنها اول الامر ... ثم تزوج الانسان من سفيقن في السكرة . وعائشة توت عن والدها الجانب الالهي المرح ، بينما برت خديجة ، الجانب المستبد .

اما اخوها ياسين ، فهو صورة من ابيه ، تجردت من الثوب الخارجي . . . اذ نراه يطلق وتزوج في اي وقت . . . مثله العليا في الحياة هي الشهوة والكاس . وعلى النقيض ، نلتمى بسقيفهم الاصفر « كمال » الذي سنغرق « فصر السوق » غرامه الاول باخت صديقه « حسين شداد » . وبصرع الحاجز الطبقي حبه الاول ، ونهار مثله القديمة ، ويستقبل الريح القادمة من أوروبا . فيقرأ دارون وماركس . . . وبشف بالعلم . . . ويكتب في الصحف . . . ويعمل مدرسا للغة الانجليزية . . . وتب الى مخيلته في أحيان كثيرة . . . الصورة الجميلة لغناة احلامه . . . فتتوار اعصابه . . . ونمضي حياته بطيئة ثقيلة . . . حتى اذا اقبل عام ١٩٤٢ ، كان نمشي في جنازة حرم المنش العام للغة الانجليزية ، مجاملة لرئيسه الاكبر . . . ولا يعلم الا بعد سنه من ذلك التاريخ ان التي شيع جنازتها كانت عابده - حبيبته السابقة - وقد تزوجت ذلك المنش بعد طلاقها من زوجها الاول !! .

ويكتب كمال على القراءة ، ويظل عطفه على الفلسفة القديمة في زاوية سلبية من حنايا نفسه . وتتوقف مقالاته عن النشر ، بعد ان لاحظ الجيل الجديد ، وهو يصعد جريا بمبادئه .

ويبدأ الجيل الثالث في الاسرة بابن ياسين « مضان » ، وابني خديجة « عبد المنعم واحمد » . اما رمضان فيلتحق بمواكب السياسة والكبراء ، فيحظى بأحد مناصب الدولة الهامة . واما عبد المنعم ، فيصبح عضوا في جماعة الاخوان المسلمين ، واحمد من الشيوعيين . وتنتهي الرواية باعتقال السلطات للثنتين .

#### الواقعية ونجيب محفوظ

يصف جاك جوميه ، الاستاذ نجيب محفوظ ، بقوله « ان الاهتمام بالواقعية موجود ايضا عند سواه ، بيد ان الجديد حقا هو استخدام الواقعية ومناهجها على نطاق واسع هذا الاتساع ، وبهذه الدرجة من الاستاذية ، في مجال الحياة المصرية »

والموضوعية عند الراهب الفرنسي ، هي الا يقف الكاتب موقفا معينا ، وان يتجرد عن كل ما يحيط ارض العمل الفني ، بالمذاهب والميول والاتجاهات . . . والا يكون قاضيا على الناس او الاحداث . . . وانما حسبه عدسة نظيفة ، تشاهد وتسجل ، في امانة وصدق .

وكانت النتيجة الواضحة لهذا الفهم ، ان يتساءل في دهشة ، حين انتهى من عرضه السيكولوجي لحياة كمال « لقد جرحت الحياة كبرياءه في مطلع شبابه ، فانطوى على نفسه . ومن الغريب ان كلمة الكرامة لم ترد مرة واحدة في الثلاثية كلها ، عند ذكر كمال ، على كثرة ما استخدمها المؤلف عند ذكر غيره من الشخصيات ، ولاسيما ابيه . مع ان هذا الاحساس بالكرامة ، لعله هو لباب عقدة كمال كلها » .

فقد فات الكاتب ، ان الواقعية لا تلزم الفنان ، بالتأكيد الفوتوغرافي للانفعالات المتباينة . كفى ان نحس هذه الانفعالات ، دون ان تصحبها (تقريرية مادية) اذا اوضح هذا التعبير ، ما نقصده بالاحداث events التي تؤكد الانعكاس النفسي للحدث action

وبهذا الفهم ايضا ، كان الكاتب سعيدا ، بان يصف نجيب محفوظ ، ما تكنه خديجة لاختها عائشة من حقد ، « على انه لم يكن لها معيد عن

كتمان عواطفها ، لان الكتمان في هذه الاسرة ، عادة متأسلة ، وضرورة اخلاقيه ، طبعت عليه في ظل الازهات الابوي ، وبين الحق والامتصاص من ناحية ، والكتمان والمظاهر من ناحية اخرى ، لفت من حياتها عذابا متصلا وجهدا مطردا » .

في حين ان هذه الكلمات بالذات ، تبدو في ثوبها التفريزي ، متنافرة مع الاصاله الفنية التي يتميز بها هذا العمل الكبير .

ويزداد جوميه ، ايضا لنا ، حين يعرف نجيب بأنه « روائي واقعي » كل جهده منصرف الى رسم الواقع رسما امينا في قالب فني . ولذا نجد بين شخصياته نماذج بشرية شديدة الالتئام . فهناك احمد عبيد الجواد وكمال .

وهناك الحفيدان الشقيقان عبد المنعم واحمد . هناك المؤمن واللحد . ولكل ملامحه وكيانه الخاص . ولذا يحق لنا ان نقول من اول نظرة ان الجو العام الذي يستخلص من مجموع الرواية هو جو الحياة نفسها »  
فالحياة - عند جوميه - حافلة بالتنافس . وواجب الفنان الواقعي ان يكون امينا على الحياة .

ولا يتركنا - للمرة الاخيرة - حيارى ، فيقول ان الثلاثية ، ليست رواية « هادفة » مثل رواية الارض لعبد الرحمن الشرفاوي مثلا .

ويبدو ان المنهج النفسي الذي تخيره جوميه ، في تتبع الخط الرئيسي الذي ينظم الثلاثية ، لم يتح له خامه جيدة ، للتدليل على صحة تعريفه للواقعية . اذ هو يتراجع قليلا عن الرأي السابق قائلا « ومع هذا ، فالثلاثية نسيطر عليها فكرة واحدة هي فكرة التطور شسبه الحتمي ، الذي يقتلع كثيرا من التقاليد التي كانت تبدو راسية . ويقوض صروحا من العرف كان يظن بها الرسوخ والشموخ » . وهو في تعبيره « شبه الحتمي » انما يعتذر في لبافة ، انه لم يجد دليلا واحدا على « الجيدة الموضوعية » التي انهم بها نجيب محفوظ . . . قائلا ، ان الحياد نفسه موقف . . . رغم ان نجيبا لم يعرف هذا الموقف الحيادي على طول الثلاثية .

ويقول جوميه ، وهو ينسحب بانتظام « الواقع انه من المستحيل ، ان نتحاشى اي مؤلف ، تبين اتجاهاته صراحة اوضحنا في عمل من اعماله » . . .

ثم يصل الى مرتبة اليقين ، ويتفق معنا قائلا « ولا شك ان مطالعة الثلاثية ، تكشف عن ميل المؤلف الى آراء كمال ، وابن شقيقته احمد »  
فما هي هذه الآراء ؟ يقول « بين سطور الثلاثية كلها تلمح تقززا من الماضي ورغبة قوية في التخلص منه . فالتحرر من الاحتلال الاستعماري يجب ان تصحبه انواع اخرى من التحرر . والعبرة التي يستخلصها كمال من حياته المترددة ، ومن القاء القبض على ابني اخته ، أشبه شسيء بالاعتراف الصريح والتوصية بالاتجاه الجديد . وذلك حيث يقول انه لا قيمة للحياة ما لم يصحبها عمل ايجابي . وهذا القول الصريح يدمغ كل حياة انانية يحياها من يعيشون لانفسهم فحسب . ويدمغ حياة العزوبة التي يعيشها كمال ، قانعا بثقافته وافكاره الخاصة عن كل عمل او اشتباك او مسؤولية . ولا يعفيه من اللام انه عاطف على أنشط حركة سياسية وطنية عرفتها الاحزاب المصرية وقتئذ »

وليس شيئا صعبا ، ان نتبين المكان الذي يقفه الكاتب من عبد المنعم واحمد . فالاول من الاخوان المسلمين . . . والاتجاه الاجتماعي او السياسي الذي تتجهه هذه الجماعة ، يختلف تماما ، مع الاتجاه الواضح الذي يؤيده المؤلف . بينما نرى احمد ، امتدادا حيا اكثر ازدهارا لآراء كمال

## التكامل الإنساني

وثلاثية نجيب محفوظ ، في تسجيلها التطور الزمني ، لجيل احمد عبد الجواد ، لا تقتصر على هذا الدور فحسب . . وانما تصور لنا الاطار الايديولوجي الذي تتطور داخله ، اخلاقيات هذه الاسرة البورجوازية الصغيرة ، ومدى اسهام الظروف المحيطة في هذه التطورات .

ويقول جوميه « في اكثر من موضع ، كان يلح في ابراز التوازي بين مستوى التطور الخلفي والعائلي ، ومستوى التطور السياسي في مصر . فكما كان الابناء يتحللون شيئا فشيئا من سيطرة الآباء كانت مصر ، كذلك تتحلل من السيطرة البريطانية »

وقد كان القالب الهندسي التكاملي ، فرصة رائعة ، امام نجيب محفوظ ، ليعرض لنا المفاهيم البورجوازية في مختلف شؤون الحياة والمجتمع . . مع تطور هذه المفاهيم عبر الزمن . كما عرض في وضوح ، لصراع الافكار المتباينة ، من خلال الاوضاع المادية النابعة منها ، حيث تقف اسرة احمد عبد الجواد ، التي تنتمي الى الطبقة المتوسطة الصغيرة ، في مهب الريح ، امام مأساة كمال ، الذي يقف الحاجز الطبقي بينه وبين عايدته شقيقة صديقه حسين ، اذ تنتمي أسرته - آل شداد - الى هذه الطبقة الوصولية التميعة ، في نموها التسلسلي على احذية البورجوازية الكبيرة . وتقف نفس الاسرة - في موقف مغاير - حائلا بين احمد وحييته سوسن ، اذ هي ابنة عامل مطبعة !!

هذه التمزقات الاصيلية في صميم الطبقة المتوسطة الصغيرة في مصر ، هي المحور الدرامي لمأساة الثلاثية .

فهذه الهندسة الداخلية الرائعة ، التي اشار اليها الدكتور نظمي لوقا في تذييله ، هي الاثر الايجابي ، للتفاعل العضوي بين المضمون الانساني للرواية ، والبناء الفني لها .

ولا ننسى ، ان التمزقات النفسية والاجتماعية ، لشخوص نجيب محفوظ ، لم تحدث نتيجة عفوية ، لمشرط ساذج . وانما جاءت نتيجة حتمية ، لمشرط خاص .

ورغم ان جوميه قد احس بالارتباط الوثيق الذي يؤكد نجيب بين الاحداث المتفرقة ، الا انه - فيما يبدو - لا يؤمن بالاساس النظري لهذا المنهج . فهو لا يربط بين اللقطات المتباعدة ، بخيط واحد . وانما يجزيء الحدث ، ويفتت القطاع الواحد ، ليخرج باكثر من نتيجة متناقضة .

يقول مثلا « نجح الاستاذ نجيب محفوظ في تجلية ياسين لنا بالعين التي يراه اخوته واخواته . اما اذا رأيناه بعين غير تلك العين الراضية المفضية فلن نرى الا شخصا شهوانيا لا يرعوى عن شيء ، مسفا في البهيمية الى حد يبعث على التقزز . فهل ترى جنح المؤلف الى تصوير ذلك كله زلفي الى فئة من القراء ، تستطيب هذا اللون من الفعل والادوصاف ؟ ام ترى اراد ان يكمل صورة الاب ليرينا ما في ذلك الرجل من شهوة كيف تبدو لنا حين تسفر عن وجهها الذي لا تقنعه سجنية الاحساس بالكرامة ، تلك السجنية التي تحلى بها ، وتجرد منها ابنسه ياسين ؟ »

هذا التساؤل المرتاب ، يوضح الى اي مدى ، استطاع ان يصل به منهج غير متكامل ، في فهم الترابط الموضوعي بين اجزاء الحدث الواحد . فالتناقض الظاهري في شخصية احمد عبد الجواد ، ليس تناقضا . فخالصه للصلاة ، وقسوته ، وصحة خلانه متى سجا الليل . . ليست جميعها متناقضات ، بقدر ما هي خطوط تفصيلية في لوحة واحدة . .

صورة البورجوازي الصغير في حياته العريضة .

اما التناقض الجذري ، فيبدو في ساق الاسرة ككل . . فالجيل الذي يمثلته احمد عبد الجواد هو احد طرفي النقيض الذي يمثله الاسن الاصغر كمال . . ويحسم الفنان الامر ، بان يواجه الجيل الثالث ، النقيضان ، وجهها لوجه ، في شخص احمد الجيل الثالث النقيضين ، وجهها لوجه ، في شخصي احمد وعبد المنعم . فينما ينظر في الاول في تقدميته ، ويغل الثاني في رجعيته .

ولا يمنع التناقض الاساسي عادة ، نشوء بعض التناقضات الثانوية على الساق الرئيسية . فاحمد عبد الجواد رجل يؤمن بالوطنية ، ولكنه يستاء ان يشترك ابنه فهمي في المظاهرات دون استئذانه . وامينة ضعيفة جاهلة ، تعاني ازمة المرأة البورجوازية في مصر خلال الربع الاول من هذا القرن ، وهي في نفس الوقت ، المظلة التي تحمي الاسرة كلها امطار الاحداث . وكمال يتشبع بالاراء العلمية والثورية ، ولكنه يحجم عن التأثر الايجابي بها . . وهكذا . فالتناقض الثانوية العالقة بأغصان الشجرة ، ترتبط في النهاية ، بالتناقض الاصيل في الشجرة نفسها .

## \*

ويعلق الدكتور نظمي لوقا على « الشخصية » عند نجيب محفوظ بانها « نبات حقيقي جذوره ملطخة بالطين ، لانها نابعة منه ، وفي ساقه عصارة لزجة ، وعلى اوراقه آثار آفات وحشرات ، لانه حي ، يحمل كل خصائص الحياة ، ويخضع للضربة التي يؤديها كل حي ، وهي الافتقار الى الكمال الذي تزهو به المخلوقات الذهنية التي لا تنبض بالحياة » .

والمخلوقات الذهنية وحدها . . هي التي لا تعرف التناقض . . . والمخلوقات الحية وحدها هي التي تعرف هذه الطبيعة الانسانية العلمية . والشخصية الحية ، هي مفتاح فن الرواية عند نجيب ، كما يقول نظمي .

ولو استطاع الاب جوميه ، ان يربط بين مظاهر البورجوازية الصغيرة ، وتطور هذه المظاهر مع الاحداث ، لجاء بالنتيجة الاخيرة ، وهي ان التطور « حتمي فعلا » لا « شبه حتمي » . . وان نجيب محفوظ يؤمن بالرأي الاول . وعلى هذا الضوء كان اجدى له ان يعيد النظر في كل ما قاله الفنان من كلمات تستر وراء الاصواء والظلال والالوان ، التي تملأ اللوحة الكبيرة . فالخيط التطوري للطبقة المتوسطة الصغيرة - مثلا - لم يكن معزولا عن بقية الخيوط التطورية الاخرى في صنعها للطبقات المختلفة ، وانما كان الاندغام الموضوعي بين الظروف المحيطة ، يخلق - دائما - الجانب الاكثر تقدما .

ولم يقع جاك جوميه في الخطأ الشائع عند نقادنا ، اذا ما تناولوا نجيب محفوظ بالدراسة . فهم يفتون بكاتب البورجوازية الصغيرة . ورغم ان التسمية تتجرد من اي ثوب علمي ، الا انها حقيقة ، ان يعبر كاتب ما عن طبقة معينة . وهذا التعبير ليس صورة جامدة ، وانما حركة حية من شأنها ان توضح لنا كيف سلك هذا الكاتب في تعبيره عن هذه الطبقة .

فالبورجوازية الصغيرة ، مادة طيبة لاكثر من كاتب . . ونجد ان كلا منهم يختلف عن زميله في وجهة النظر التي يرى بها هذه الطبقة ، في نموها وانحلالها . . في تقدمها او انكاسها . . في اشتباكاتنا الحية مع الطبقات الاخرى ، وما ينتج عن هذا التفاعل من خطوات تاريخية .

فنجيب محفوظ ، يكتب عن الطبقة المتوسطة الصغيرة . . لانه عاشها بالفعل ، وعانى ظروفها ، واحس بها . وهذا لا ينسينا ، ان نجيبا عاش - التتمة على الصفحة ٦٤ -

## غوميه ونجيب محفوظ

- تنمة المنشور على الصفحة ٢٤ -

ولكن التقيد ببطقة معينة - كما قلت - لا يلزم الفنان بالتشجيع  
لمثالياتها ومصالحها . بل هو يستطيع ان يكون اكثر تقدما وانسانية ،  
كلما وعى - في صدق - كافة الصراعات المختلفة التي تصنع طبقته ..  
وليس هذا الوعي الصادق الا نتيجة طبيعية للزحام الموضوعي الحار بكل  
الظروف المحيطة بهذه الطبقة . وتفسيرها حسب منهج علمي .

واكرر ان جوميه ، لم يقع في خطأ نقادنا الشائع عن نجيب محفوظ .  
ويبدو انه لم يعثر على الصواب . وربما ان هذه الشائعة لم تصل الى  
اذنيه ، فاستراح الى توخي الدقة في رسم نجيب .. من الظاهر فقط .  
فاذا بحثنا عن نجيب من الداخل . فماذا نرى ؟  
اننا نجد عالما وعى كل مظاهر طبقته بعمق . وضع كلنا يديه على كافة  
نوايس التطور في البيان الايديولوجي لهذه الطبقة . عرف كيف يثبت  
قدميه على عجلة القيادة .. الى امام .

فهو يفسر لنا الارتباط والتعلق الذي يحسه جميع ابناء نحو بينهم،  
برقة الام وحنانها ، وكثرة غياب الوالد عن البيت ، والتواطؤ بين الاخوة  
والاخوات ، والكذب عند اللزوم (١)

فالخيوط الذي يربط تماسك هذه الطبقة ، هو خيط واهم . والارتباط  
الذي نتوهمه بين افرادها ، هو زيف . فرقة الام - وهي رفة جاهلة كما  
يقول كمال - واستهتار الاب ، والتواطؤ والكذب .. لا يمكن لهذه الاعمدة  
الخائرة ان تقيم صرحا قويا متساندا .

والادوار العليا ، القائمة على الاساس الواهن، لا بد ان تؤول للانهار .  
فأمينة لا تستغني عن حماية الرجل « لقوته » - وان كان مصدر القوة  
هو الضعف - لطرده الجن والقضاء على الخوف منهم . واحمد عبد الجواد  
رجل شديد الاحساس بتماسك الاسرة .. هذا التماسك «الخيالي» الابله .  
والمثاليات النابعة من هذا الواقع المتداعي، هي مثاليات متداعية ايضا .  
فالكذب في عرض المسلمة حرام . ويوم قال كمال انه رأى مريم جارتهم  
تبتسم بمودة لجندي انجليزي ، زجرته الام على الفور زجرا شديدا قائلة  
بلهجة تتم عن الوعيد : - كمال !.. الكذب في مثل هذه الامور جريمة  
لا يفرها الله .. راجع نفسك يا بني!

وحين زار البيت ، الشيخ متولي عبد الصمد ، الذي عاى الاب درسا  
قاسيا ، ولامه اشد اللوم على حياته التي تجافي روح الاسلام وتعاليمه .  
فاحتج احمد عبد الجواد قائلا ( بين القصرين ص ٢٨ ، ٢٩ ) :  
- ما ارتضت نفسي يوما ان تعتدي على عرض او كرامة قط . والحمد  
لله على ذلك .

وكذلك الصدق واجب « حين يحلف احدهم بالقرآن » ، ولذا ترى  
الاب يعمد الى هذا الملاذ الاخر في حديثه مع ابنه فهمي يجبره على الطاعة  
والوفاء ( بين القصرين ص ٢٧٥ ) .

والكرامة - في مفهوم البورجوازية الصغيرة - تصدر في اوسع حدودها  
عن واقع هذه الطبقة . ولا تفوت جوميه هذه الملاحظة « فالشعور بالكرامة  
عنصر رئيسي في سيكولوجية جميع شخوص نجيب محفوظ . فالاب حريص  
على حفظ المظاهر لصون كرامته ، ولذا يخفي عن اهله سهراته وصنواته .  
ويتحاشى ما يجرح سمعته او يفضحه » .

وعندما يعظه الشيخ بان الفسق لعنه ، ولو يكن بفاجرة « كان ابوك  
رحمه الله مولما بالنساء فتزوج عشرين مرة . فلماذا لا تنهج سبيله  
وتتنكب طريق المعاصي ؟ » يجيب في ضحكة عالية :

- انت ولي من اولياء الله ام ماذن شرعي ؟ كان ابي شبه عقيم فاكثر

(١) جوميه - ص ٢٩

- في نفس الوقت - اشياء اخرى كثيرة . عاش الفلاسفة العلمية الحديثة،  
والنظريات الانسانية الجديدة .. وعانى - بكل ذرات دمه - قسوة الشك  
واليقين والتمثل . ثم هو بعد ذلك ، لا يرى في تعبيره عن الطبقة  
البورجوازية الصغيرة ، موقفا نظريا ، وانما هي الصدفة التي انشأتها في  
احضان هذه الطبقة .

يتحدد موقفه النظري - والتطبيقي - اذن ، من خلال تفصيلنا نحن ،  
للنتائج العلمية ، التي نفوز بها بعد هذه المعاناة .

فتولستوي ، كان ينتمي الى الطبقة الكبيرة ... وكان صامتا في تعبيره  
عنها .. ولكننا نرى هذا التعبير اتخذ زاوية معينة .. زاوية انسانية .  
فهو لم يعطف على طبقته ، بل اتخذ منها مادة رائعة للنفاذ الى صميم  
هدفه الانساني .

وكذلك الامر بالنسبة لتشيكوف ، وان اختلف طبقته عن تولستوي ،  
وازدادت نظرته قريبا من العلم ، والتطور ، والموقف الانساني .

بل ان الادب الانجليزي ، يمنحنا مثلا كبيرا في شكسبير ... فالقصور  
والملوك والامراء .. جميعها استغرقت كل اعماله . ولكنه كان انسانا .  
ففضح استارهم . ومزق الاقنعة المزللة عن حقيقتهم . واعطانا فكرة  
صادقة عن مخادع الجريمة التي تستلقي رؤوسهم القنطرة على وساندها .  
فهل كان شكسبير كاتب ملوكيا ؟ كلا .. وانما كان كاتب انسانيا .

وهناك نقطة هامة .. وهي ان الفنان اذا القى بصره بعميدا عن طبقته  
جاء تعبيره زائفا مفتعلا . فالكاتب الذي نما في احضان الطبقة العاملة ،  
لن يستطيع ان يكون صادقا ، اذا عبر عن الطبقات الاخرى ، الا في الحدود  
المصلحية المتشابكة في صراعنا اليومي . والكاتب الذي ترعرع في احضان  
الطبقة الكبيرة ، لن يستطيع ان يكون صادقا ، اذا اراد ان يعبر عن  
الطبقات الشعبية ، الا في نفس الحدود السابقة . وهي حدود ضيقة  
لا تتيح فرصة التأمل الواعي الدقيق . والكاتب اذا كان احد ابناء الطبقة  
الوسطى ، فهو لن يتحرى الصدق ، الا في دائرته الطبقية الخاصة . اذ  
ان المسافة الموضوعية التي تبعد به عن الطبقتين العليا والدنيا .. هي  
نفس المسافة التي تبعد به عن الصدق اذا اراد ان يعبر عن احديهما .

صدر حديثا

## هكذا تشرق الشمس

فلسفة سياسية

بقلم  
محفوظ ايوب

الثلث ١٥. ق.ل.

زوجته الاولى .. وكان على استعداد ان يردها ثانية ، لولا انها اصرت على عدم العودة . وكان يصدد ان يطلق امينة - بعد ان طردها - لولا انها عادت اليه . وقد ورت عنه ياسين ، الامتداد المنظور لنفس الظاهرة . فهو يطلق ويتزوج في ضجة واباحية . ورضوان - ابن ياسين - هو ضحية اخرى من ضحايا الطلاق . وقد رأيناه يعاف الزواج وينصرف الى عقد الصلات الشخصية مع رجال السياسة والاحزاب ، ويستخدم نفوذه لترفية ابيه بغير حق . بنوف جوميه فانلا (( مما يبرز لنا مرة اخرى عنصر التماسك في بناء تلك الاسرة البورجوازية الصغيرة )) بينما نلاحظ ان هذا التماسك قد بنى على غير اساس صادق متين . وبالتالي يكون البناء عرضة للسقوط في اي وقت .

### قيمة التفاعل الطبقي

واعود الى القيمة التفاعلية ، التي نضح عند نجيب محفوظ ، فسي كشفه التلاحم الشبكي بين الطبقات ، فاقول .. ان هذه القيمة ، تعار دائما ، حين يصح للفنان دور فيادي في حياة الناس . فلا يقول المؤلف (( ان يميز تلك الطبقة الفنية . قال سداد بغسلاء ينفقون على المظاهر عن سعة ، ويقترنون على الخدم ، ولا يقدمون لضيوف حسين من اصحابه الا الماء البارد . ويأكلون شطائر من لحم الخنزير في رحلة الهرم ، مع انهم يحتفلون بشهر رمضان احتفالا باهرا )) بل ان كمال ، يكتشف اخيرا ، ان عايدة تستخدمه لاثارة احد رفاقه ، وهو ابن مستشار ملكي واسع الثراء يتقدم لخطبتها .

وهكذا لا يلبث الكاتب البورجوازي الصغير (!!) ان يحيط بكل مظاهر الحياة من حوله ، فلا يتشبهت بتقاليد طبقته ، وانما ينزع قديمها الراسخ ، ويسهم في تطويرها الى الجديد المشرق . ولا يفعل - مع ذلك - الطبقة التي اعيت عنقه في محاولته النظر اليها .. فيسخر من جهودها المشبع بالضلال .. اذ لا تدري من التاريخ الا اسماء بطولانه ، أما نوايس تطوره ، فنجلها امام الجهل .

وتبلغ السخرية الرائعة مداها ، حين يرسم الفنان سبعة لسات بارعة صورة حية لحياة هذه الطبقة ، التي يتساق على احذيتها رضوان . فهو يتردد على باشا من رجال الاحزاب يسكن ضاحية حاوان . وهذا الباشا صورة غريبة لرجال من طرازه بين رجال السياسة ومخترفيها ومستوزريها في زمنه . فنحن قرب نهاية الثلاثية نراه مزعما السفر الى مكة للحج ، ونسمعه يقول لرضوان ، ولأحد اصدقائه في خيلاء وسرور ( السكرية ص ٢٨٦ ) : (( انتم اتس . ما الحياة بدون المودة والصدافة ؟ الحياة جميلة . الجمال جميل . الطرب جميل . العفو جميل . انتم شباب وتنتظرون الى الدنيا من زاوية خاصة ، وسوف يعلمكم العمر الكثير ، التي احبكم ، واحب الدنيا ، وان زيارتي لبيت الله للشكر والاعتذار وطلب الهداية .

فقال رضوان باسم :

ما أجملك ، وما أجمل منظرك ، وانت تظفر صفاء !

فقال علي مهران :

- ولكن حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء اخرى . حقا يا باشا انك معلم الجيل !

وعلق الرجل :

- وانت ابليس نفسه يا ابن الهرم ! اللهم اذا قدمت يوماً للحساب ، فسأشير اليك وكفى !

فهذا الباشا ، لا يعرف في حياته سوى التفاؤل . وكذلك رضوان

من الزوج . وبالرغم من انه لم ينجب سواي ، الا ان عقاره تبدد بيني وبين زوجات اربع مات عنهن ، الى ما ضاع على النفقات الشرعية في حياته . اما انا فاب لثلاثة ذكور واتنين ، وما يجوز لي ان انزلق الى الاكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق ، ولا ننس يا شيخ متولي ان غواني اليوم هن جوارى الامس ، واللاتي احلهن الله بالبيع والشراء . والله من قبل ومن بعد غفور رحيم .

وواضح ان احمد عبد الجواد يرفض الزواج باكثر من واحدة «حرصا على كرامته» . وحين بولع في فصر الشوق بالعودة زنوبة ، ونراها يرفض الاستسلام له ما لم يتزوجها ، نعمته «كرامته» من الزواج بامرأة اهل منه منزلة .

ويتساءل جوميه في فلق : ما هو الدور الذي يسنده الاستاذ نجيب محفوظ الى الدين في حياة احمد عبد الجواد ؟ ما هي المكانة الحقيقية للاسلام في حياة ذلك الرجل الذي لا يخلف وقتنا واحدا من اوقات الصلاة الخمس اليومية ، ويصحب اولاده في ابهة كاملة الى المسجد لصلاة الجمعة ، ولا تكاد تكف شفهانه في صحوه عن ذكر الله .

ويقول : ان احمد عبد الجواد ، كما رسمه المؤلف مؤمن بوحدانية الله ، وبانه غفور رحيم . ولكن هذا الايمان بوانية الله ، الذي يحنقه على كمال لتسيغه لمذهب داروبن ، لا يرفع عن الاستبداد بذلك الايمان ، ولا يرفع عن مجونه وقصفه بسبب ذلك الايمان . بل هو يرى الاستبداد صفة ملازمة للرجولة . اما الشهوات الحسية فهي في نظره امور طبيعية كالرغبة في الطعام والشراب .

والقلق الذي احسه جوميه في سؤاله ، ينجم عن اغفاله الترابط الموضوعي بين مظاهر النشاط البشري . ونحن اذا طالعنا وجهي عبد الجواد طالعا في نفس الوقت وجهها واحدا لنجيب محفوظ ، يرى به هذه الطبقة . بنفس الوجه ، رأى نجيب ، الاختين خديجة وعائشة . فالاولى احرصهما على اركان العبادة ، من صوم وصلاة . ونجيب يقرب تلك القوى بصمات خفية كثيرة بنقضها . ولعل هذا - عند جوميه - (( من انار النزعة اليسارية لدى المؤلف )) فخديجة الصائفة المصلية تقار من اخها الصغرى لخطبتها قبلها ، وتندم لان الله لم يجزها على نقواها ( بين القصرين ص ٢١٤ ) .

وظاهرة التفسخ ، التي عرض لها نجيب محفوظ ، وأشار اليها جوميه ، ولم يربطها ببقية المظاهر الاخرى .. هي الطلاق . والطلاق ، هو احد الخيوط الواهية ، التي تضم البناء الروائي في الثلاثية ، داخل القالب الانساني لتقصه . فاحمد عبد الجواد ، طلق

### صدر عن دار المنسوف

الروم  
في جزئين

في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم  
وصلاتهم بالعرب

للدكتور أسعد رستم

الكلمات ، التي بدأ بها الاب جاك جوميه دراسته لشخص ثلاثية، هي التي أريد ان اختتم بها هذا البحث . قال جوميه « .. ونعتقد ان الدراسات الفلسفية التي بدأ بها شبابه اتاحت له صدق الحس في التحليل النفسي ، فادرك الصلات العميقة بين مواقف قد يراها غيره اشتاتا متفرقة لا يجمعها رباط . نعتقد كذلك ان تعليمه الجامعي اتاح له القدرة على تدقيق الادب الاجنبية ، فأخذ منها فنية الرواية . بيد انه هضم تلك الفنية وسيطر عليها وسخرها لاغراضه ، فخرج عمله الكبير مصريا خالص المصرية » .

★

شيء ما في ترجمات نظمي لوقا ، كان يلفت نظري . هو هذه الدقة الامة ، التي تنقل الينا الكتاب الاجنبي في توبه العربي الايق . وشيء جديد في ترجمة نظمي لوقا ، لفت نظري في نقله هذه الدرسة الى العربية ... فقد شممت رائحة عرقه في الثوب العربي الذي البسه لجوميه ، وهو يقدمه لنا . واحد است ان هذه الدرسة بما رافقتها من كلمات غنية لنظمي لوقا .. ما هي الا مقدمة نصيرة لدراسة جديدة طويلة . قال نجيب محفوظ في بدء هذا المقال ، انه يريد للناقد عقل فياسوف ، وضمير قاض ، وقلب انسان .

ولقد اكتفى جاك جوميه ، بقلب انسان . وارانى مضطرا ان انحنى لهذا الرجل .. مرة ثالثة ..

غالي شكري

القاهرة

الذي يتخذ فدوته .. ولا يبالي بكثير من الاعتبارات في سبيل الوصول . يستخدم الفنان نفس المنظار العلمي ، في رؤية الطبقة الجادة في نهوها الانساني . وينتجز اقرب فرصة للتصادم بين هذه الطبقة ، والطبقة المتوسطة الصغيرة ، حين ترفض زواج احمد من سوسن ابنة عامل المطبعة .. وتتصير العدسة الانسانية في النهاية ، حين يتزوج احمد حبيته . ونجيب محفوظ في تتبعه الخط المتقدم للانسان .. لا يهمل التفاصيل الصغيرة ، التي قد تثار بين متناقضات هذا الخيط الواحد . فرياض ، شاب قبلي حر ، تمثل في اعماقه التيار العلمي للثقافة الحديثة .. ومع ذلك فهو يحس الما حدا لاضطهاد الاقباط في عهد صدقي . ويناقش صديقه كمال في هذا الموضوع ، فيجيبه :

– ها أنت تتحدث عن الاقباط ! انت الذي لا تؤمن الا بالعلم والفن . فقال رياض :

– اني حر وقبلي في آن ، بل اني لا ديني وقبلي معا . اشعر في احيان كثيرة بان المسيحية وطني لا ديني ، وربما اذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت . ولكن مهلا ، اليس من الجبن ان انسى قومي ؟ شيء واحد خليك بان ينسيتني هذا النزاع ، الا وهو الفناء في القومية المصرية الخالصة كما ارادها سعد زغلول .

كان كمال يتمطق ويفكر وصدوره يجيش بالعواطف . كانت سحنة رياض المصرية الصحيحة تذكره بالصورة الفرعونية ، وتاملات شتى في نفسه : – ان موقف رياض له وجانه التي لا تجدد . وانا نفسي بين عقلي وقلبي شخص يعاني انقسام الشخصية . فكذلك هو . كيف يتأني لاقلية ان تعيش وسط اغلبية تضطهدها ؟ وجدارة الرسالة السامية تقاس عادة بما تحققة من سعادة للبشر تتمثل اول ما تتمثل في الاخذ بيد المضطهدين وقال لرياض بصوت مسموع :

– لا تؤاخذني . فقد عشت حتى الان دون ان اصطدم به مشكلة المنصرية . فمند البدء لفتنتني امي ان احب الجميع . ثم شبيت في جو الثورة المطهر من شوائب التعصب ، فلم اعرف هذه المشكلة . – نلرجو الا تكون ثمة مشكلة على الاطلاق . يؤسفني ان اصارحك باننا نشانا في بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة . لست متعصبا . ولكن من يستهين بحق انسان في اقصى الارض – لا في بيته – فقد استهان بحقوق الانسانية جميعا ( السكرية ص ١٣٩ )

يقول جوميه ( ص ٦ ) لا يفغل المؤلف ازمات الضمير المروعة التي كانت تثيرها احيانا احتكاكات بعض المصريين ببعض وجوه التفكير الاوروبي ، من نزعة علمية في مبدأ الامر ، ثم النزعة الماركسية بعد ذلك « . واطلاق هذا القول هكذا دون اي ضابط او تحديد ، يتيح فرصا كثيرة للتأويل غير العلمي . بل ربما جاءت هذه العبارة نتيجة عدم الايضاح الدقيق ، لتلقى الاحداث الفكرية في الرواية .

ويثبت ذلك ما جاء على لسان الكاتب ( ص ١١٢ ) من ان هذا هو السبب في ان القراء على اختلاف آرائهم ومذاهبهم لا يجدون ما يصددهم عندما يقرأون الثلاثية « فإراء اي شخصية تؤول على انها آراء خاصة بتلك الشخصية ، ولا يقدمها لنا المؤلف ، باعتبارها مثلا أعلى يقتدى « . ويبدو هنا الخلط واضحا ، اذ ينفي جوميه ، الدور الكبير الذي قام به المؤلف من خلف الستار . ولذا فنحن نختلف مع الكاتب اختلافا تاما ، ولا نبرز دليلا جديدا ، على الدور الباهر الذي اداه الفنان ، غير الادلة التي ذكرناها من كلام الكاتب نفسه .

★



# دنيا والبي

تقدم :

## بنات القمر

عاشقات في عمر الزهور يجذآن بقواعد المجتمع ...  
 موعدهما كل ليلة خارج القرية ...  
 يفتدن عتق غرامهما صب الرسم : فنن ضفان  
 الزهر أيام الربيع الى ظلال الغابة أيام الصيف ..  
 ثم الحس كرف في الجبل أثناء الشتاء ...

٢٠٠ صفحة

١٥٠ ق.ك.

شركات الكتب التجارية للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت